

«أولاد حارتنا» في معركة الدفاع عن حرية المبدعين

لم تكن الطعنة الغادرة التي أصيب بها نجيب محفوظ في الساعة الخامسة والربع من مساء الرابع عشر من أكتوبر (تشرين أول) الماضي، طعنة موجهة إليه وحده، وإنما كانت موجهة إلى كل المثقفين المصريين، وإلى كل الكتاب العرب، في شخص هذا الكاتب، وإلى أدبه الإنساني الذي تعد أولاد حارتنا إحدى قممه العالية.

ولأن هذه الرواية التي كانت السبب المباشر في محاولة الاغتيال الفاشلة مصادرة في مصر، لا تتاح قراءتها إلا في طبعة «دار الآداب»، فقد هبت في مصر كلها عاصفة قوية من السخط والاحتجاج على مصادرة هذا النص، الذي كان من ميررات حصول صاحبه على جائزة نوبل للآداب ١٩٨٨، تطالب بالإفراج عنه، والسماح بنشره على أوسع نطاق ممكن في وطنه، دفاعاً عن حرية التعبير، وحرية المعبرين.

وبينما كان نجيب محفوظ راقداً في مستشفى هيئة الشرطة بالعجوزة، يكابد مع ارتفاع السن آثار الطعنة القاتلة، كانت مؤتمرات المثقفين تعقد في أكثر من مكان،



والبيانات تكتب حاملة ميثاق التوقيعات. والدوريات الشهرية، مثل إبداع والقاهرة والثقافة الجديدة، تصدر وعلى أغلفتها صورة نجيب محفوظ، أو متضمنة ملفات كاملة عنه، متحدياً هذا الإرهاب الشرس، الذي أصاب أعز الأدياء في بلادنا، وأكثرهم إخلاصاً للوطن وللکلمة وللإنسانية، وفق رؤياه التي قد تثير الخلاف، ولكنها لا تقلل من دوره أو عطائه في تاريخنا الأدبي.

وبفضل توفر نسخ «دار الآداب» من رواية أولاد حارتنا وتداولها بين الأدياء والصحفيين، سواء أكانت نسخاً أصلية أم مصورة أم مزورة، قامت أكثر من صحيفة بنشرها، دون أن تجد صعوبة في العثور عليها. نشرتها جريدة الأهالي دفعة واحدة في عدد خاص صدر في ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) بجنيه واحد، على حين وصل سعر الكتاب في السوق السوداء إلى ٥٠ جنيهاً. وقدمت لها الجريدة بعدة مقالات للنقاد: محمود أمين العالم، جابر عصفور، شكري عياد، فريدة النقاش، وغيرهم.

كما نشرت جريدة المساء في نفس الوقت، فصول الرواية مسلسلة.

وعلى الرغم من إقبال القاعدة العريضة من القراء على اقتناء الرواية في العدد الخاص من جريدة الأهالي، فقد تضامن عدد كبير من المثقفين، يقدر عددهم بخمسمائة، مع جريدة الأهرام التي نشرتها سنة ١٩٥٩، في الدفاع عن حقوقها في النشر التي تتمتع بها، وحصلت عليها كتابة من نجيب محفوظ.

إلا أن التيار المؤيد لإطلاق حرية النشر لكل من يستطيع، من مؤسسات الاستنارة والتقدم، كان أقوى في حججه ومنطقه، لأن القضية، بعد محاولة الاغتيال في قلب القاهرة، خرجت عن حدود المحافظة على

الحقوق الأدبية أو القانونية أو المادية للمؤلف، وأصبحت قضية الوطن وأمن المواطنين. أصبحت قضية إعلان رفض الهيمنة والوصاية على الدولة، وعدم صب الفكر والملكات في قالب واحد، وكسر الأحادية ودعاوى التكفير التي تعرض لها صاحب نص يجمع العالم على قيمته الرفيعة، وذلك بتوصيل الرواية إلى الشعب، حتى يدرك بنفسه ما يتهدده ويتهدد حضارة العصر، من جراء هذه الاتهامات الجائرة، والجريمة الفادحة التي يرتكبها الإرهاب في حق الوطن، والثقافة، والحرية.

وأمام تمسك الأهرام بحقها وحق المؤلف في الأذن بنشر نصه، تساءل كثير من الأدياء والمثقفين: أين كانت الأهرام على مدى ٣٥ سنة منعت فيها أولاد حارتنا بتقرير سرّي، وقوانين الدولة تنص على أنه لا مصادرة إلا بحكم القضاء؟!

والإجابة على هذا السؤال يسيرة: لم تحرك الجريدة ساكناً - وهي من موقع القيادة الفكرية المستنيرة - إزاء محاكم التفتيش التي فرضت على الرواية تفسيراً دينياً يتناقض مع مناهج النقد الأدبي والأعراف التي لا يسأل فيها الفنان عن مقاصده. ولم تعلن احتجاجها على فتوى عمر عبد الرحمن التي اعتبرت نجيب محفوظ مرتداً، يباح دمه بلا محاكمة، رغم نفي الكاتب الكبير، في أحاديثه الصحفية، لهذا الاتهام. وفي المعتقد الصحيح يكفي مثل هذا النفي لنقض الاتهام، وتبرئة الساحة، لأن القلوب لا يعلمها إلا الله.

وبالصمت تقام الأسوار والقيود على كل فكر عقلائي، وتهب التربة لغرس النباتات السامة للتطرف والإرهاب.

ومادامت الأهرام لم تكتف بالتصدي للمصادرة والتكفير، وحجب الرواية عن

النشر إعمالاً لفتوى باطلة، فليس من حقها اليوم، في ظل هذه الظروف الاستثنائية التي تمرّ بها البلاد، أن تقطع الطريق على نشرها، وإطلاع الجماهير عليها.

ورواية أولاد حارتنا تمثل، في إنتاج نجيب محفوظ، مرحلة جديدة تعددت تجلياتها في أعماله التالية ابتداء من قصة اللص والكلاب. وفي هذه المرحلة لم يعد نجيب محفوظ يهتم - كما يقول - بالناس والأشياء، أي بالجزئيات، وحل محله الاهتمام بالأفكار والدلالات الكلية. أو لنقل إنه، بهذه الرواية، تخطى في فنه وفكره الواقع والوجدان متخذاً من قصة البشرية إطاراً عاماً للتعبير المجازي الرمزي العميق عن مجموعة القيم المادية والروحية التي حكمت مسيرتها في غضون الصراع والمعاناة التي خاضتها هذه البشرية في سبيل إقرار العدل والحرية والكرامة الإنسانية وانبعاث النور والعجائب..

ومن خلال رسالة الأديان السامية التي قادها جبل ورفاعة وقاسم، ثم العلم الذي يمثله عرفة بقواريره وأبحاثه وكشوفه، ظلت قوى الشر لنظار الوقف والفتوات تفضلها لصالحها، لا لصالح أهل الحارة، بصورة جعلت الشر غلاباً، لا يتوقف عن ممارسة سطوته على الآخرين، في منظومة العلاقات التي تحكم حياتهم.

وفي معرض المحاكاة الفنية للرواية، التي يتداخل فيها المنظور الميتافيزيقي مع المنظور الاجتماعي، نجد العلم يشق إلى الالتقاء بالإيمان، حتى لا يتكبد طريقه، ويحقق غاياته الإنسانية.

ويعد هذا الالتقاء أحد المعاني الإيجابية التي تحفل بها الرواية الخالدة.

نبيل فرج